

أزمة علم الأديان في الفكر العربي الحديث

- محاولة في تشخيص العلل وإزالة السبب -

عز الدين عناية(*)

I. نحو توضيح للحدود بين الحقول

التفكّر في الظاهرة الدينية يأتي تحت ضربين، تعامل من الداخل وتعامل من الخارج. والطابع الأول هو الذي يميّز مسيرة العقل العربسلافي مع موضوع الدين. والظاهرة الدينية العربية في أشكالها الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام مدعوة إلى معانقة المناهج العلمية النفسية والسوسيولوجية والإنسانية والأسطورية وغيرها للإلمام بالدين.

فما المراد بالتعامل ما قبل الداخلي مع الدين؟ هذا النهج الدراسي يلتحم بالحقول التيولوجي سائراً أغواره التشريعية والعقدية حيث ينساب الدارس مع قضاياها الممتدة من الكلّي إلى الجزئي ومن العام إلى الخاص ومن المعاش إلى الآرأيتي. والالتزام بمستلزمات هذا المنهج ليس مشروطاً بالانتماء الإيماني للدين المدروس وإنما نجد في عديد المرات من يشتغل بالقضايا التيولوجية في شقّيها الفقهي والعقدي من هو من خارج الدين المدروس. فقد يكون الدارس للإشكاليات العقدية والفقهيّة الإسلامية مسيحياً أو يهودياً أو بوذياً أو لا إيمانياً أو العكس؛ فالدراسة الداخلية للدين لا تشترط إذاً الإيمان العقدي بالدين المدروس، وهذا الذي ننبيّه له نلحظ تغافلاً عنه لدى عديد من يحاولون التفريق بين منهجي التعامل التيولوجي والعلمي مع الظاهرة الدينية فتقع نسبة الدراسة التيولوجية في شقّيها العقدي والفقهي لشخصيات مؤمنة فحسب⁽¹⁾.

(*) باحث في علم الأديان - جامعة الزيتونة - تونس.

(1) ينحو عادل عزّا هذا المنحى، إذ يقسم النظر في الدين إلى نوعين: وجهة نظر اعتقادية ووجهة نظر علمية وتاريخية. راجع كتابه: علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، منشورات عويدات، بيروت، باريس، 1977، ص 11. وص 37 إلى 56.

والعلوم الوسائل في هذه الدراسة في حقل الدين الإسلامي متنوعة: فقه، أصول فقه، عقائد، سياسة شرعية، مواريث، علوم القرآن بتنوعاتها، قراءات، ناسخ ومنسوخ، أول ما نزل وآخر ما نزل، المكي والمدني، المطلق والمقيد، والاحكام وغيرها. هذا، إلى جانب ما يتبع ذلك في علوم السُنَّة وتفرعاتها: تدوين الحديث مسألة الاسانيد والمتون، انواع الحديث وغيرها. حيث تقع متابعة الإشكالية العقدية أو الفقهية أو القرآنية أو الحديثية بالبحث في معقوليتها ولامعقوليتها في منطقيتها ولامنطقيتها، وتختلف نية البحث باختلاف الدارس فتتراوح بين السلب والإيجاب، الممتد من البحث عن تحصينات للنصوص المقدسة - قرآنية وسُنَّةية -، إلى البحث عن تغيّرات داخل الديانة المدروسة بغية مهاجمتها من الداخل. فالتعامل الداخلي مع الدين سمة المنهج التيولوجي يمتد من نية تدعيم الدين إلى نية تقويضه وما يتخللهما من رؤى موضوعية بغيتها التمعّن والفهم. فالمنهج التيولوجي متعدّد الشعاب، وهو ليس كما يتبادر للعديد بأن المنشغل بهذا الحقل هو من العائلة الدينية الإيمانية، ونحن لا يهمنا إن كانت هناك عداوة أو قرابة بين هذين الدارسين وإنما مهمتنا رصد مناهج التعامل مع الظاهرة الدينية، بغية تشريع خطابها وفهمه والإلمام بخصوصياتها ومجالاته لتمييزها عن منهج التعامل الخارجي مع الظاهرة الدينية.

بعد تعرّضنا للمنهج الداخلي في التعامل مع الظاهرة الدينية، سنحاول متابعة ورصد خاصية التعامل الخارجي مع الظاهرة الدينية، وهي السّمة التي عرفت اتساعها خلال الحقبة الأخيرة مع ميلاد علوم إنسانية وتفرّع شعابها واختلاف مناهجها، فكان تسليطها لرؤاها على الظاهرة الدينية وفي حاضنها اشتدّ عود التعامل العلمي مع الظاهرة الدينية⁽²⁾. وهذا النهج وإن كان لا ينشغل بمصادقية الظاهرة المدروسة لناعية صدقها وصحتها وإنما يحاول الغوص في بنيتها الداخلية سابراً تشكّلها ومدلولاتها وانسيابها في ذهن وأحاسيس ومشاعر المؤمن بها وما تخلفه فيه من آثار سلبية وإيجابية وما تولده لديه من دوافع وموانع، إنه فعل الشحنة الدينية في الذات الإنسانية سواء من خلال ما تخلفه فيها من آثار عبر انخراطها في الاجتماع الإنساني أو عبر نشاطها السلوكي أو الاقتصادي أو المعرفي أو الفني أو غيره. فعلم الأديان أو ما نسميه التعامل الخارجي، مجالاته متسعة ومتنوعة ومن هنا يستمد ثراؤه وغناه. فحقله يمتد من البحث عن أصل الشعور الديني أي من مرفولوجية الإيمان إلى انقراض الإيمان، أو بتعبير آخر من ميلاد الله إلى موت الله. وعندما نقول ميلاد الله فإننا نحمل هذه الكلمة كل تبعاتها الأسطورية والقداسية والطقوسية والرمزية. وعندما نقول موت الله فإننا نحملها كل تبعاتها أيضاً

(2) لمتابعة المسيرة التطورية لهذا العلم يمكن مراجعة كتاب محسن العابد: مدخل في تاريخ الأديان، نشر دار الكتاب سوسة - تونس، 1973. بالإضافة إلى الكتاب الهام لميشيل مسلان:

Michel Meslin: Pour une Science des Religions, Seuil, Paris.

من موت الأسطوري وتقلص الطقوسي واكتساح العلماني للديني وتدحرج التابوات وغيرها.

والتعامل الخارجي مع الظاهرة الدينية والذي يتزعمه عالم الأديان في مقابل التيولوجي الإيماني أو اللا إيماني - كما بينا سابقاً - هو تعامل موزع بين عديد المباحث والحقول وربما هذا إحدى السمات المميزة لهذا العلم بين كافة العلوم الإنسانية الأخرى والذي يؤسس استقلالية وتبعية لها بتعامله معها؛ وهذه السمة يتميز بها وحده بين كافة العلوم الأخرى⁽³⁾. فعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد والإناسة وعلم النفس والألسنية والتاريخ وعلم التربية وعلم الظواهر وغيرها تحتل الظاهرة الدينية جزءاً من انشغالاتها وتتابع مظهراتها وفاعليتها السلبية والإيجابية؛ ومع ذلك، فالديني ليس محور شغلها وهماً الجوهرية، فهو ليس مرتبط الفرس الذي تدور حوله وإنما يأتي كامر عرضي وثنائي لديها. وهذا الذي يمثل الثانوي في هذه العلوم يصبح يمثل المركز والنواة في علم الأديان الذي يجمع هذا الشتات وهذا الفئء الموزع في علوم مختلفة ويعيد صهره تحت منطقته ومنهج. وبهذا فعلم الأديان وليد العلوم الأخرى - وما أكثر العلوم التي تتوالد من بعضها - .

إن تعامل علم الاقتصاد مع الظاهرة الدينية من حيث فاعليتها في الإنسان وتأثيرها عليه من زاوية دفعه إلى أو منعه عن ممارسة نشاطه الاقتصادي يبقى محكوماً بالخط والمنهج العام الذي يميز الفكر الاقتصادي في تحليله للإشكاليات. ولئن يهتم رجل الاقتصاد بالأمر باعتباره جزءاً أو فرعاً من نشاط الإنسان الاقتصادي في مسرح الوجود، فإن علم الأديان يأتي انشغاله بهذا الأمر ليكشف له عن أغوار المقدس والديني الفاعلة في ذات الفرد، فيتبع مظهراتها في دلالاتها الاقتصادية، وكأن الطاقة الدينية أو شحنة المقدس طاقة محايدة ومنفصلة ومستقلة من حيث خاصياتها ولكنها تعبر عن فاعليتها عبر نشاط الإنسان في الكون سواء أكان هذا فنياً أو بنائياً أو اقتصادياً فتظهر في الأثر السلوكي والأثر البنائي والأثر الزراعي أو الاقتصادي. فتمظهرات الطاقة الدينية متنوعة. فهي بقدر ما تظهر في الطقس الديني - التعبير المباشر عن الدين - تظهر كذلك في الأثر الاجتماعي.

اللّه بين علمي اللاهوت والأديان

سنتناول مسألة اللّه باعتبارها عينة من العينات المشتركة بين الحقل اللاهوتي والحقل العلمي. فاللّه في المنظور اللاهوتي تحديد كينونته تمتد من التعريف إلى اللاتعريف، وهويته تمتد من التوحيد إلى التعديد، وزمنيته تمتد من الأزل إلى الأزل، أو بتعريف التوراة هو الألف والياء، أي من اللابدئي إلى اللانهائي، وفاعليته في التاريخ

Michel Meslin: Pour une Science des Religions, P. 255 et 5.

(3)

تتحدد في الفكر الإسلامي بحسب دلالات الأسماء الحسنى؛ ولئن تتقارب مفاهيم اللاهوتية بين اليهودية والإسلام من حيث التعريفات والخصائص والصفات فإن الأمر يعرف تناقضاً جذرياً مع المسيحية بالرغم من «التوحيد المسيحي» المتحدث عنه. فالأقائيم الثلاثة التي تساوي الوحدة في المعتقد المسيحي لا تجد لها مرادفاً في اللاهوتين اليهودي والإسلامي بالرغم من الشطحات التي نجدها هنا وهناك⁽⁴⁾. فحقل المعرفة اللاهوتية متشعب، وتتضارب فيه آراء مختلفة، وله منطقها الخاص الذي يمتزج فيه الروحي بالعقلي الصرف، والذوقي بالمحسوس، والغيبى بالمشهود. وقطاع الغيب الشاسع في معظم الأديان والتدليل على وجوده وصدقه يمتد من الأدلة النقلية إلى الأدلة العقلية وما يتوسطهما من تجارب مختلفة ذوقية أو عرفانية أو روحية بحسب المكابدات المختلفة في مسألة الله.

فما حاولناه سابقاً هو التعرّض باختصار لخصائص المنهج اللاهوتي في مسألة محدّدة وهي مسألة الله؛ إذ المقام لا يسمح في هذا المقال للتعرض لاستطرادات في ما ذكر؛ فاعتقادنا أن القارئ على إلمامة بإيحاءات ما ذكرنا سابقاً. وغرضنا هو التعرّض لخصائص منهجي علم اللاهوت وعلم الأديان. وهذا الأخير وبفعل تشعبات زوايا النظر فيه واختلاف الرؤى باختلاف المواقف سنحصر المسألة أو سنهتم بها في مجالات محدّدة: الفضاء النفسي، الفضاء الفني والفضاء الإنساني.

في الحقل النفسي الديني تحضر مسألتان رئيستان سيطرتا على معظم الدراسات في هذا المجال، وهما طرح السؤال المرفولوجي السيكلولوجي أي تشكّل الأَقنوم الألوهي، كيف ينشأ في النفسية البشرية، ما هي الدوافع والمناسط وراء ظهوره؛ ولئن ردّد باحتشام عديد السيكلوجيين عدم اهتمامهم بصدق أو زيف، وجود أو انعدام عالم الألوهية فإننا نرى أن موقفهم ذلك موقف هروبي ومناور ولا مبدئي وغير علمي. والشغل الثاني الذي شغل السيكلوجيين هو التمثّل النفسي لهذا الأَقنوم في الذاتية البشرية وما يفرزه في وعي الفرد ولاوعيه في يقظته وفي نومته في تفكيره في حياته وفي موته من كافة أنواع المشاعر الوجدية الطربية، والدرامية المأسوية⁽⁵⁾.

أما عن الأمر الثاني الذي ودّنا الحديث عنه وهو علاقة الله بالمجال الفني، فالخصائص بين عالم الفن اللامحدود وعالم الألوهية اللامحدود متشابكة وهي تعرف تمازجاً وتناخماً؛ فعملية حصر الفن في شكل لغوي محدد (صورة، صوت أو حركة)

(4) للاطلاع على ما تذهب إليه بعض الأقوال في تسوية التوحيد الإسلامي بالتثليث المسيحي، راجع: عبد المجيد الشرني: الفكر الإسلامي في الردّ على النصارى إلى نهاية القرن الرابع / العاشر، الدار التونسية للنشر، تونس، 1986، ص 202 - 203.

(5) للاطلاع على المشاغل الأساسية التي تشدّد علم النفس الديني، راجع: Michel Meslin: Pour une Science des Religions, P. 41 et 5, P. 113 et 5.

هي عملية تقريبية، وكذلك عملية حصر أقنوم الألوهية في تعريف محدد في عملية تقريبية.

ومبحث الفن الديني يلحق في معظم الأحيان، بحقل السوسولوجيا الدينية أو الأركيولوجيا الدينية، غير أن ثراء وغنى هذا المبحث يفرض تفريع فرع خاص لدراسة خاصياته وآلياته ومفاهيمه. فهذا المبحث الذابل واليتيم بين فروع علم الأديان ليكشف عن إمبريالية بعض الفروع على غيرها؛ فتوزيع ثروة الدين بالتساوي بين العلوم المختلفة والتي ربما ستكشف لنا الأيام عن غيرها هو العلم الذي نطمح إلى بنائه وتأسيسه. فالفن أحد البوابات التي ستولجنا إلى مغارة الدين الرهيبة، لا تزال موصدة أمام الدراسات العلمية وهو ما يتطلب اهتماماً مكثفاً بها.

أما المجال الأخير والذي وددنا التعرّض له وهو مجال الإناسة الدينية، والتي تأتي بمثابة متحف أو مخزن علم الأديان، فمخلّفات الإنسان الديني - L'homo religiosus - كثيرة ومتنوعة، وهي تتخذ أشكالاً أسطورية وسحرية وطقوسية ومفاهيمية مختلفة، والباحث المتخصص في هذا الحقل لن يفلح فيه ما لم يكن على عُدّة هامة باللغات التي عبّر بها الإنسان ويعبّر حالياً عن المقدس والأسطوري؛ فالفعل الديني في حاجة إلى إناسة دينية راصدة كما هذه الأخيرة في حاجة إلى إناسة عامة تستمدّ منها منهجها وآلياتها. ومقولة الله الحاضرة في أغلب الأديان والغائبة في بعضها كالبودية، تحتاج إلى إناسة متابعّة لمختلف تشكلاتها وتمظهراتها؛ فمقولة الله الواحد والمجرد كانت نتاج جدليات تمت عمليات نضجها في واقع وذهن الإنسان ومن هنا تأتي الحاجة إلى إناسة ألوهية لوعي هذه المسألة.

II . الحضارة المنطفئة / الحضارة الملتهبة وعلاقتها بعلم الأديان

لماذا علم الأديان ذوى في العهود الأخيرة للثقافة العربية الإسلامية؟

قد تكون الإجابة متسعة، فنعلّل الأمر بحالة التدهور الكلي التي عرفتتها البلاد العربية والإسلامية وبموجة الاستعمار والتخلف الاجتماعي والاقتصادي الذي ضرب البلاد في عمقها وسطحها. فنقول إن علم الأديان جزء من كل والذي يضرب الكل يمس الجزء؛ ولكن بالرغم من التطور النسبي في شتى الميادين الذي عرفتته البلاد العربية فإن علم الأديان لا يزال ناشئاً إن لم نقل مفقوداً لماذا؟.

يبقى العصب الأساسي لعلم الأديان مبحث تاريخ الأديان⁽⁶⁾. وبالرغم من أهمية المباحث الأخرى كالإناسة والظواهرية وعلم الاجتماع وعلم النفس والتي بإمكانها الاكتفاء بالداخلي والمحلي، فإن هذا الأصل مع توأمة علم مقارنة الأديان حيويته لا تكون

(6) Gustav Mensching: *Histoire de la Science des Religions*, Traduit de l'Allemand par Pierre Jundt, La marre, Paris, 1955, P. 13.

إلا بالاهتمام بدين الآخر الحضاري المغاير الكلي للذات.

فبقدر ما يتطور العصب الأساسي ويشهد من تكثف لمادته وتطور لمناهجه وتعدّد لانشغالاته، فإن كافة الفروع الأخرى تشهد تطوراً؛ فالمادة الخام لتطور سائر المباحث الأخرى تكون مرتبطة ارتباطاً عضوياً بغزارة وثراء هذه المادة. فعلم النفس الديني الفرويدي كانت مادته مرتكزة ارتكازاً أساسياً على ما وفّره التاريخ الديني للأديان الأخرى من دراسات إنسانية وعراقية - Ethnographique - ولسلالية - Ethnologique . - قس على ذلك نتائج السوسولوجيا الدينية الدركايمية، والنتائج الأسطورية والبنوية لكلود ليفي ستروس، وما بلغ إليه مرسيا إلياد وغيرهم كثير.

نعود إلى المسألة الأساسية التي عنوانها بالحضارة المنطفئة والحضارة الملتهبة وعلاقتها بعلم الأديان.

تاريخ الأديان بصفته علماً ينشغل بالآخر الديني أكثر من انشغاله بالذات الدينية يرتبط ارتباطاً أساسياً بالسهم الحضاري الصاعد أو النازل للأمم والحضارات وهو يسجل تراجعاً وتقلصاً مع انغلاق الحضارة على ذاتها وتوقف توهجها الداخلي، فتصبح الذات الجماعية غير منشغلة بالآخر؛ أما في لحظات الفورة الحضارية فإن تاريخ الأديان أو في أثوابه المتنوعة (ردود، مقارنة، منافحة للأديان والملل الأخرى، تمعن في بناها العقديّة ومحاولة لدحضها) كما كان الأمر في الحضارة الإسلامية⁽⁷⁾. أو كما اتخذ مع الحضارة الغربية الحديثة مظهرات جديدة (سلالة، عراقية، إنسانة، علم اجتماع ديني، دراسات أسطورية، استشراق، استهناد، استعراب، فقه اللغات القديمة...)، فإنه يكون غزواً للآخر، غزواً معرفياً بغية فهم روح المغاير الحضاري، إذ إن هدفه الإلمام بذات الآخر من حيث مدى ثراء وغنى تجربته في الوجود؛ إنه في النهاية يطمح إلى إثراء الذات ولا نقول يطمح إلى إلغاء الآخر، إذ يسعى إلى إدماجه تحت مظلته وحشره تحت هيمنته. فتاريخ الأديان تحت فروع أشكاله المختلفة هو في معظم تطوراتها كان داخل الحضارات الصاعدة، فقد تنشأ فلسفات أو أدبيات داخل الحضارات الراكدة والمنطفئة، ولكن نادراً، إن لم نقل متعذراً نشوء تاريخ أديان داخل الحضارات السائرة في طريق التحلل أو الانقراض؛ فنظراً للدور الأساسي الذي المحنا إليه المنوط بتاريخ الأديان وهو حرب الأنا المعرفية ضد الآخر المزمع غزوه واجتياحه، فإن الحضارة التي انطفأت فيها

(7) يقف عبد الله دراز موقفاً متعجباً أمام التغافل الأوروبي عن المساهمة الإسلامية المبكرة في تطور تاريخ الأديان معتبراً ذلك مجانباً للإنصاف. في الحقيقة أن الأدبيات الإسلامية الكلاسيكية قد سيطر عليها في جُلّها خط عام، وهو عدم انفصال الموضوع المدروس عن ذات الباحث ومعتقداته، إلا في ما ندر، لناحية إصدار أحكام الصحة والخطأ والتحسين والتقبيح. أما مع انطلاقة هذا العلم في الفكر الغربي الحديث فقد وقع التنبيه لتلك المساوئ السابقة فنحت الدراسات إلى فصل الموضوع المدروس عن ذات الباحث. ولا نرى أنها هي كذلك وفقت كل التوفيق في ذلك، راجع كتابه: عبد الله دراز: الدين ببحوث معهدة في تاريخ الأديان، بدون تاريخ ومكان الطبع، ص 12، 13، 14، 15.

الشعلة الداخلية لا تكثر بالآخر وتشغلها الذات عن الآخر. فيصبح الاهتمام بالآخر لا جدوى له أو بالأحرى لا دافع له في ظل اندحار وانحسار الإشعاع الداخلي. والناظر نظرة فوقية إلى مسيرة تاريخ الأديان في الحضارات الإنسانية المهيمنة عبر التاريخ يمكن أن يلحظ ذلك؛ ففي العصر الحديث ومع تفجر هذا العلم في البلاد الأوروبية نلحظ ذلك التحفّز الذي عرفته الحضارة الأوروبية لاكتشاف الروح الشرقية، حيث الكلف بأصول اليهودية والمسيحية والإسلام إضافة إلى الزرادشتية والمانوية والمزدكية، كذلك الهندوسية وتفرعات دياناتها المختلفة البوذية والجينية وغيرها من الديانات الأخرى؛ فأغلب رموز العقل الغربي في العصر الحديث كان لها شغف بديانات الشرق وأساطيره.

ونحن بتتبعنا لازمة علم الأديان في الثقافة العربية الإسلامية، فإننا نرجع التخلّف الهام الذي عرفه هذا العلم بالمقارنة بالازدهار الذي عرفه قديماً والذي كان في الغالب في قالب ردودي⁽⁸⁾ إلى الأمور التي ذكرناها سابقاً.

وخلال هذا القرن وبعد أن لمحنا استحياء في الجسد الإسلامي فإننا نلحظ اهتماماً بهذا العلم وهو خير دلالة على تحفّز الذات نحو فهم الآخر في عمقه وفي أحداثياته الأسطورية والدينية؛ إذ «للتوصل إلى صميم حضارة ما، يجب أن نكون على علم بآلهتها»⁽⁹⁾.

III . أزمة علم اللاهوت الإسلامي

لئن طرحنا مسألة تطور تاريخ الأديان في نطاق فلسفة الحضارة والتاريخ بصورة عامة لكوننا اهتمنا بعلاقته الجدلية مع الاجتماعي، فإننا سنتابع مسيرة التطور والتأزم التي تلحق بهذا العلم في نطاق جدليته الداخلية، وسنركّز على أزمة هذا العلم داخل الفكر العربي الحديث. فبالرغم من الصلة التي تربطه بالعلوم الإنسانية، فإن علم الأديان يعرف ميلاده داخل أحضان علم اللاهوت الجريء والعقلاني؛ فتجاوز منطق العقليات المهيمن على دراسة علوم القرآن والسنة النبوية والفقه هو الشرط الضروري لميلاد هذا العلم؛ إذ إن تلك العلوم المشار إليها لم تعرف تطوراً جذرياً منذ نشوئها حتى عصرنا الحديث. ولئن القشريات تغيّرت فإن الروح عينها، حيث غياب المنهج النقدي وسيطرة المنطق المدرسي - Scolastique - داخل هذه العلوم. فنقد «الحديث النبوي» اللامعقول والغريب مثلما ورد في الكتب المعتمدة لئن تمّ فإنه اهتم بالسند وغيب أو تغافل عن نقد المتن، ولعلّ مواجهة بسيطة لكتب الصحاح بمقدورها أن تبين هذا الكم

(8) للاطلاع على الخصائص العامة التي ميّزت أدبيات الردود الإسلامية من خلال دراسة نماذج منها يمكن الرجوع إلى: محسن العابد: مدخل في تاريخ الأديان، نشر دار الكتاب سوسة - تونس، 1973، ص 61 إلى ص 87.

(9) محمد سليم الحوت: في طريق الميثولوجيا عند العرب، الطبعة الأولى، 1955، ص 14.

الهائل من الأحاديث غير الخاضعة لمنطق العقل وصرامته. ولعلّ المسائل الجذرية وراء ثبوت علوم اللاهوت الإسلامية وسيطرة التكرار على هذه العلوم وغياب الروح التجديدية بالرغم من الزعزعة الحداثية التي هزّت جلّ أركان البيت، تكمن في القطيعة والطلاق الكاثوليكي بين علوم اللاهوت الإسلامي والعلوم الحديثة كاللّغاة - Philologie - واللّسنة وغيرها. فأمر صناعة لاهوت حيّ يُحتمّ المرور عبر العلوم الحية. إن تحصّن أي علم من العلوم الإنسانية المختلفة - العلوم المختلفة في مقابل العلوم الصحيحة - في خندق وعدم مناصرة العلوم الأخرى من شأنه أن يكرّر لديه الأخطاء ويولّد لديه الثبوت، ويكون غير مستشعر للجراك الذي يهزّ العقل الإنساني والتبدّلات التي تطرأ على بنيته وحاجاته.

ونقدّر أن هذه العلة قد ضربت العقل اللاهوتي الإسلامي أشدّ ضربة. فعلم القرآن والحديث والفقه في جلّ جامعات العالم الإسلامي لا تزال تمارس عملية تدريسها وكان العلوم الإنسانية من علم اجتماع وعلم نفس وعراقة وسلالة ودراسات للغات القديمة لم تظهر بعد⁽¹⁰⁾.

فلإنّ إنتاج لاهوت ملتزم بقضايا الواقع وليس إنتاج لاهوت مغترب، يتحتمّ الالتفات إلى العلوم الإنسانية التي هي في علاقة وطيدة مع المقولة الدينية. فكل المنشغلين على المادة اللاهوتية مدعوون إلى تأسيس لاهوت منفتح كيما يكون هذا العلم فاعلاً وحاضراً في التاريخ بالإيجاب لا بالسلب. فالاعتراّب عن حضارة الواقع وهمومه وانشغالاته هو السرطان القاتل لكل لاهوت، حتى لا يكون المشتغلون بهذا العلم كـ ﴿الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾⁽¹¹⁾. ويظنّ الإنسان أنه يدافع عن دينه وهو يضره من حيث لا يدري كصاحب كتاب: السيف البتار في نقض حجج الكفّار القائلين بأن الأمطار من البخار؛ فاللاهوت القادر على استيعاب إنتاجات الحداثة والقادر على مناصرة العلوم الإنسانية دونما خوف على هتك ستره، هو اللاهوت القادر على الحياة والدوام وهو الناطق الرسمي باسم النص المقدس. فالعقل اللاهوتي الإسلامي في جانبه الفقهي لا يزال يعيش على ترديد قضايا القرون الهجرية المبكرة وبدون إدراك للبنى الاجتماعية والطبقية والهواجس الفكرية التي ولّدت تلك الإشكاليات. فعلى سبيل المثال، المحدّدات الفقهية الكلاسيكية لمسائل

(10) تمثّل كتب صبحي الصالح ومَناع القطن المرحلة الأخيرة لتطورات علوم القرآن والحديث في الفكر الإسلامي، ولا تزال هذه الأدبيات في ارتهان ودُين قاهر للتراث القديم، مع غربتها عن الواقع الحديث وما أنتجه من علوم مختلفة قادرة على أن تبثّ النصوص المقدسة من مرقدها. انظر الكتب التالية: صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن، الطبعة الرابعة عشرة، دار العلم للملايين، بيروت، 1982. صبحي الصالح: علوم الحديث ومصطلحه، الطبعة السادسة عشرة، دار العلم للملايين، بيروت، 1986. مناع القطن: مباحث في علوم القرآن، الطبعة الرابعة عشرة، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983.

(11) سورة الكهف، 104.

الأعيان النجسة والأعيان الطاهرة وما يتعلق بها من ضوابط فقهية لا تزال تدرس بالطريقة عينها وبالعقلية عينها في مواد العلوم الشرعية؛ ففي عصر تطور علم الجرائم وتعدد مواد التطهير والتنظيف لا تزال فوق المنابر العلمية تدرس «ظهور إناء أحكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أولاً من بالقرب»⁽¹²⁾؛ ولا يزال الاشتغال بتدريس زكاة الغنم والبقر والإبل باختلاف تنوعاتها الحقّة واللّبون كإشكاليات أساسية في الزكاة، وكان الاقتصاد العربي والإسلامي الحالي ذو بنية أعرابية بدوية جامدة عبر التاريخ، وغياب مسائل تهم البيوعات والتجارة وما عرفتهما من تطورات خلال العصور الحديثة. أمام هذا الأمر لا يملك الإنسان إلا قول:

حُنيئُناك دين الله بت مُمرّقا ثُصان بمعتوه وتُزرى بمملحد

فتقديرنا أن استنزاف العقل الإسلامي في قضايا لاتاريخية هي عملية اغترابية لاواعية؛ إذ اللاهوت هو وليد العصر والمصر الذي ينشأ فيه ففقه ليس هو فقه مصر؛ فالكية التاريخانية هي التي يجب أن تسكن ذهن اللاهوتي كيما يعي التغيرات التي تطرأ على الإنتاج الفكري؛ فعلم اللاهوت بفروعه المختلفة ليس هو النص المقدس؛ وأن تجدد وتغير الأحكام في المقولات الفقهية أو الأصول الفقهية، أو في العلوم الحديثة أو القرآنية، يجب أن يجري تغيير الأزمان. فكل علم لاهوت لا يجري الإحداثيات الاجتماعية والتطورات التاريخية لناحية استيعابها محكوم عليه بالاغتراب والانعزال. فعلة العلل التي أصابت العقل اللاهوتي الإسلامي هو انفصاله عن التاريخانية⁽¹³⁾. وبصفة علم الأديان أكثر العلوم تحررية وجرأة نقدية في التعامل مع المقدس، لا ينشأ إلا داخل لاهوت جدلي ومنفتح وهو ما لا تقبله العقلية العربية الإسلامية، التي تربت في ظل لاهوت طارح لنُصف الاسئلة ومُغَيَّب وساكت عن بعضها؛ أو بتعبير أدق ناشئة في أحضان لاهوت الأطروحة مع غياب لاهوت نقض الأطروحة باستعمال مفاهيم المدرسة الجدلية. وهذه الإعاقة النُصفية التي تصيب اللاهوت الإسلامي في تعامله مع الدين الإسلامي من الطبيعي أن لا تولد منهجاً علمياً في التعامل مع مختلف الأديان والنحل التي عرفتتها البلاد العربية سواء قبل الإسلام أو بعده. فرصد البدايات الأولى لعلم الأديان الغربي يكشف عن انبجاسها داخل فضاء لاهوتي منفتح؛ إذ المسألة مرتبطة بمشروطة تقلص الرّهبة من المقدّس والتعامل معه بموضوعية إضافة إلى نشوء حركة نقدية لا تبقي ولا تذر مساحة للممنوع أو اللامفكر فيه.

(12) صحيح مسلم، شرح النووي، ج III، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت، 1972، ص 183. انظر أيضاً: صحيح البخاري، ج I، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ص 54.

(13) Voir: Mohamed Arkoun: L'Islam, l'Historicité et le Progrès, Rencontre Islams-Chrétienne, Carthage-Hammamet Kairowon, 1974, P. 29-53.

IV . الشروط التقنية

كما بيّنا الخصائص العلمية لعلم الأديان مميّزين إياه عن سياق مناهج أخرى فلسفية أو شعرية باعتبارها حقولاً معرفية مغايرة من حيث منهجيتها للدراسة العلمية للدين. وإضافة إلى ما حدّدناه سابقاً من شروط لنهضة هذا العلم، فإننا نضع على قدم المساواة الشرط التقني التالي، والذي نعتبره شرطاً إلزامياً لنهضة هذا العلم في الفكر العربي. فما المسألة التقنية في مفهوم علم الأديان؟ لكل قطاع أدواته البحثية والمعرفية الرمزي منه والمادي وعلم الأديان لا يشذّ عن هذا السياق، فمناهجه وقواعده ونتائجه التي يسلكها ويصوغها لا تنبني على تخمينات أو عواطف جيّاشة أو طاقة انفعالية أو تأمل استبطاني وإنما ميدانه واقعي تحليلي استقرائي، وهذه الأمور لن تتحقق ما لم تتوفّر الأدوات اللازمة لذلك.

لكل علم خاصيات أدواته. وكغيره من العلوم الإنسانية، فإن علم الأديان يركز ارتكازاً هاماً على الوثيقة المقروءة والمسموعة والمُشاهدة. وهذه ما لم تتوفر بكثافة وبتنظيم علمي فإن الأمر لا يكون مساعداً على نشوء هذا العلم؛ وتجاوز الوثائق كما حدّدناها سابقاً والتعامل مع الإشكالية الدينية بحسب منطق التفكير الفلسفي يختلف عن منهج تاريخ الأديان؛ إذ التعامل التأملي والاستبطاني مع الإشكالية الدينية يُخرج الأمر من الفضاء العلمي إلى الفضاء الفلسفي حيث ميدان فلسفة الدين. ويأتي تأسيس دورية مختصة بهذا العلم إن لم نقل دوريات بحسب التفرعات المتنوعة أمراً إلزامياً، بغية تطرح مسألة «هوية» هذا العلم في الفكر العربي، ولإرساء حوار واتصال بين المهتمين والباحثين والاكاديميين في هذا الميدان.

عقبة أخرى تعترض هذا المشروع وهو أن علم الأديان في الثقافة العربية لا يمكن أن يكتفي بالإنتاجات والأدبيات العربية القديمة والحديثة المكتوبة بلغة الضاد؛ وهو ما يتطلب تحقيق الأمور التالية: كل المشتغلين بهذا البحث أو المزمع تكوينهم بغية الاشتغال بهذا العلم ينبغي تسليحهم باللغات الثلاث التالية: الألمانية والإنكليزية والفرنسية، ناهيك عن اللغات الأخرى الحديثة والقديمة؛ فمسألة اللغات مسألة أساسية لإنتاج باحثين مقتدرين في علم الأديان؛ إذ اللسان العربي والمكتبة العربية غير قادرة على تحقيق المرجو. وحتى المتابعات العربية لإنتاجات الفكر الغربي في هذا الميدان عن طريق الترجمة تأتي بمثابة محاولات فردية ومتناثرة وقليلة وهي لا يمكن أن تفي بالحاجة للباحثين المتكلمين اللغة العربية فحسب. وربما إحداث فريق ترجمة مختص في علم الأديان هو من الأمور الأكيدة لمتابعة ما ينتجه العقل الغربي والعقل العالمي. إضافة إلى هذا، فإن إحداث مكتبات مختصة داخل حرم الجامعات والكليات العربية ومحاولة تزويدها بالموسوعات الدينية والأسطورية وغيرها إضافة إلى الأدبيات والدوريات اللازمة، نجده أمراً إلزامياً.

النقطة الثالثة التي سنتعرض لها والمتعلقة بالمسألة التقنية، هي: بما أن الجهاز التدريسي لمادة علم الأديان غير متوفر في البلاد العربية لمختلف الاقطار والجامعات وحتى لو توفرت بعض العينات فإنها ستكون متناثرة ولا تؤسس تكاملاً أو اتصالاً في ما بينها، الأمر الذي يجعل كل تجربة لإعادة بعث هذا العلم داخل حرم المؤسسات الجامعية مسألة شائكة ومحبطة؛ فالنقص كيف يُصار إلى تجاوزه ظرفياً إلى حين إنتاج نُخب مقتدرة؟ إن عملية تطعيم وتوليد العلوم من بعضها عملية معمول بها في حقول شتى، سنتعرض في الإجابة عن ذلك لتجربة جامعة الزيتونة؛ فبفعل عدم وجود جهاز تدريس مختص وكاف لمواد علم الأديان كان الانتداب لجامعيين من كليات ومؤسسات أخرى؛ مع العلم بأن الجهاز المنتدب لم يكن مختصاً بالأمر هو أيضاً وإنما تأتي مسألة علم الأديان في أبعادها النفسية أو الاجتماعية أو الإنسانية أو الاقتصادية أو الأثرية جزءاً و فرعاً من اختصاصها العام؛ كأن يكون أستاذ علم اجتماع ثقافي فتوكل إليه مهمة تدريس علم الاجتماع الديني، وقس على ذلك أمر تاريخ الأديان أو مقارنته فيكون الأستاذ مختصاً بالآثار الرومانية أو الفينيقية أو التاريخ القديم فيعهد إليه تدريس تاريخ الأديان أو علم مقارنة الأديان. وفي خضم هذه النوايا والتحفّزات الصادقة التي كانت تدفع الجهاز المدرّس والمسير والمسؤول في الجامعة لا يخفى على أحد حدوث بعض العثرات والسقطات والتي تبدو طبيعية في طريق كؤود، فتدرّس مقارنة الأديان بأسلوب ردودي حجاجي - Apologetique - ، أو أن تقع أخطاء في قراءة آيات الكتاب المقدس أثناء التدريس توحى بجهل الأجدديات الأولية لهذا العلم من طرف المدرّس فتقرأ الآية: لا يعيش الإنسان بالخُبِرِ وحده بل بكلمة من فم الرب⁽¹⁴⁾، بطريقة مغلوطة: لا يعيش الإنسان بالخُبِرِ وحده... ثم يتدارك الأستاذ مصححاً: لا يعيش الإنسان بالخُبِرِ وحده... وبالرغم من كل هذه السقطات وغيرها، فالتجربة فريدة في الجامعة التونسية إن لم نقل في العالم العربي؛ فإن الزيتونة توصلت إلى إنتاج ثلة متكونة في هذا العلم نامل في أن تُستثمر إمكاناتها في تطوير هذا العلم وتدعيمه في تونس وفي سائر البلاد العربية.

فبالرغم من يقيننا أن الطريق طويل وأن الزّاد قليل وأن العقبة كؤود أمام هذا العلم، فإننا على يقين أيضاً من حاجة الفكر العربي إليه ومن جدواه النفعية للمساهمة في حل بعض الإشكاليات العويصة النابعة من الظاهرة الدينية وجميع إفرازاتها؛ ذلك من المؤسف حقاً أن نجد أن من أخطر المسائل المطروحة على الفكر العربي هي الإشكالية الدينية وعلاقتها بالواقع الاجتماعي والتي لم يتأسس تحليلها وفهمها بعد داخل الفضاء العلمي.